أدونيس المثقف العضوي

ياسين النَّصير *

يعد الشـاعر والمفكر أدونيس أحد أهـم المفكرين العرب الذين وضعوا نصب أعينهم، أنَّ قـراءة التراث لا تعنـي الإلتزام بحرفياته ونصوصه، فالقراءة نقد، هكذا بدأ مشروع أدونيـس مع التراث، سـواء كان عبر قراءته، أو عبر اسـتلهامه في شـعره ومقالاته، في الثقافة أو في فهمه. فالنقد المعرفي يتيح للمفكر أن يقف على أيجابيات التراث وسلبياته، والأمة العربية، بما تملكة من إرث كبير وواسع لم يخضع يوما لرؤية نقدية معاصرة، هكـذا بقيت رؤى النصـوص التراثية القديمة تتراكم على وعـي الأجيال بحيث أصبحت مسـلمات لايمكن المسـاس بها، لـذا تعتبر قـراءة أدونيس للتراث العربي قـراءة نقدية معاصرة، لا تقف عن نتائج ذاتية يمكن اسـتثمارها في مشروعه الشـعري أو الفكري، إنما نسـتخلص منها رؤية أوسـع من الاسـتفادة الذاتية. فأدونيس الشاعر، وأدونيس المفكـر، وأدونيـس المترجـم، وأدونيس المـشروع، واحد مـن الذين دمجوا بـين التفكير العقـلي بالـتراث، والإنفتاح على إنجازاته المتميزة. وهو هنا يعيـد رؤية المعتزلة، ورؤية الصوفية في انفتاح المخيلة الشعرية، فالممارسة النقدية تؤسس لبنية معرفية عميقة.، ومن أولويات تفكيره وضع العقل العربيَّ ضمن سـؤال المعرفة، فالذي يقرأ التراث عبر موقف، عليه أن يؤسس مشروعا للتغيير،فكانت قراءته للشعر العربي واستدراج نماذج مـن القصائد واحدة من مهمات القراءة الموجهة للتحديث، فكان كتابه « مختارات من الشـعر العربي القديم» باكورة هـذه القراءة النقدية، التي مهـدت لمشروعه النهضوي في كتـب أخـرى، ابرزها «الثابـت والمتحول» وديوان «المـكان» إلا أن الغايـة الأبعد، هي تأسيس رؤية نقدية شاملة للتراث الذي بقي دون فحص وتنقيب، مترافقة مع النهضة الإجتماعية والسياسـية التي شـهدتها المنطقة العربية بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧، ولو أنها لم تنتج تغييرا على مستوى الأنظمة السياسية، إلا أنها بذرت أول بذرة نهضوية أعادت الإعتبار للثقافة العربية عندما شـخصت النكسـة مـن أن التراث العربي القديم مسؤولٌ عنها لأنه لم ينقد ولم يتح للعقل العربي أن يعمل قطيعة مع هذا التراث .

كمـا فعلت شـعوب عديدة وكان مـن نتيجة هذه النغصة المؤقتـه أن ظهرت كتابات نقديـة للايديولوجيـا العربية وللعقـل العربي والثقافـة القديمة المتحكمة بمسـارات الحيـاة المعاصرة ومنها الكتب الدينية التـي تقمع كل تصور حديث. ضمن هذه الرؤية

* ناقد من العراق

الشـاملة التـي فرزتها النكسـة نشـط بعض المفكريـن وتصدوا لنقد العقل والتراث العربي برؤيـة حداثوية، كان أدونيس في مقدمة هؤلاء في كتابـه الثابت والمتحـول. والثابت والمتحول شـمل في بنيتـه: الفلسـفة والديـن والثقافة. والغاية مـن ذلك كله تكوين منهجية حداثوية لتلمـس الطريـق لنهضة فكريَّـة وثقافية من شـأنها أن تجعل الثقافة العربية سائرة ضمن الركب العالمي.، فأيَّة حداثـة، لايمكن أن تنمو ويصبـح لها إطـار معرفي، دون نقـد للتراث. لقد مهدت مختارات أدونيس للشـعر العربيَّ، الأرضيـة الواسـعة لقـراءة التراث الشـعري العربيَّ، وفق مختارات تنتمي للحداثة، فليس كل التراث مرفوضـا، كما أنَّ ليس كله مقبولًا. ثـم عمـق رؤيتـه النقديـة للتراث مـن خلال الاسـطورة الرافدينيـة والكنعانية، فأشـتغل عـلى الأسـاطير «أدونيس وعشـتار»و«بعل»، وأنهـض فيهم القيـم الجماليَّة عندمـا تُغذي الأسـطورة، الشِّـعريَّة الحديثـة. ولـم يقـف تأثيره واستشرافه للحداثة القديمة على نماذج دُرسـت عالميًـا، وترجمت لثقافتنـا، وكان لها وقع كبـير خاصة «الغصـن الذهبي»لجيمس فريزر، إنَّما مارس أدونيس اسـتلهام الموروث عـبر شـعريته، «صقـر قريش»وجعـل مـن الأسـطورة التراثيـة أقنعـة لرؤيـة الحاضر، فالكتابة الشِّـعريَّة مزاوجة ثقافيَّة بين القديم والحديـث، من جهة، وعبر اسـتحضار فاعلية المـكان، الفضـاء البنائـي للشـعريَّة من جهة أخرى، فكان ديوانه «المكان» بأجزائه الثلاثة، سـفرا في الـتراث عبرالمـكان والزمـان، حيـث التداخـل بـين الأمكنة خلقا لفضـاءات عالميّة، ففـي ديوان»المكان»يسـتعير أدونيـس أمكنة المتنبـي وأمكنـة المـوروث عـبر تداخـل بنى تشـكيلية لفضـاء النـص، دالاً بهـا على غنى الجغرافيا الفضائيَّة للقصيدة الحديثة التي لا تريـد مغادرة موروثها الفنـي، كما لا تريد أن تكون طافيـة في فضاء اللامفكـر به من قبل، وكأنَّه بهـذه التركيبة بين الـتراث والمعاصرة، يعيـد تركيـب الجماليَّـة الحديثـة باعتمادها على الجماليَّة المعماريَّة والفلسـفيَّة والشِّعريَّة القديمة عبر فضاء القصيدة الكونيّ.

فالشِّعريَّة لم تعد وحدها من مقومات العقليَّة النقديـة، وإنَّمـا لابد لهـا من متكئـات فكريَّة وفلسفيَّة وتراثية تعمّق حضورها، هكذا كانت قـراءة أدونيس للـتراث، قـراءة بحث وتقص للنـوى الفكرية، المختبئـة وراء النص المقروء، ليـس في مجال الثقافـة وحدها، إنَّمـا في بنيَّة العقليَّة العربيَّة الفلسفيَّة، البنيَّة التي ارتبطت بالسياسـة ودوائـر الحكم، الأمـر الذي جعل أدونيس يعمّق هذا الِاستشراف لأبعاد الحداثة عبر:

أولا: كتابة القصيـدة الحديثة، المعمقة برؤية تراثيَّـة، وقـد أنجـز فيها مـا يفـوق تصورنا النَّقدي عن اسـتشراف أبعاد التراث. في مقدمة مشروع ديوان(المكان).

ثانيًـا: وهـي الأهـم عنـدي، بعـد شـعريته، وترجماته: هي الرؤية النَّقديَّة والفلسفيَّة التي تم بها تكوين عقل جدلي وضع مشكلات الأمة العربيَّـة في صلب اهتمامه النَّقديِّ والشـعريّ، فكان كتابه«الثابـت والمتحول»من أهم الكتب النقديَّة الحديثة للفكر العربيَّ وللعقل العربيَّ وللفلسَّـفة العربيَّـة، ورأى ضمـن مشروعـه

التنويـري، أنَّ الثقافـة قادرةٌ على إعـادة بنيَّة العقـل العربيَّ وفـق آليات نهضويَّـة حديثة، وعبر فحص التراث وقراءته قراءة نقديَّة. فكان «الثابـت والمتحـول» أكثر من كتاب، وأوسـع من نقـد، وأعمق من بحـث في الثابت الفكري والمتحـول الإجتماعـي والإنسـاني والثقـافيَّ والجمـالي. كان مشروعـاً نهضـويـاً يصب في منهجيـة النَّقد الثقافيَّ للعقليـة العربية، حيث تتطلب الوضعيَّة العربيَّة نهضة ثقافيَّة نقديَّة، تؤسس خِطابا معرفيا بثقافة عربيّة حديثة.

يطـرح أدونيـس في «الثابت والمتحـول» ثلاثة حقـول فكريَّة، ثقافيـة، وسياسـية للنهضة، عـبر نقد الثبّـات والدعـوى إلى التحـوّل، هي حقل الثقافة، وحقل السـلطة، وحقل المعرفة، وهـي ثلاثيَّـة مشـتركة في نتـاج كل المفكرين التنويريـين العـرب الذين نهضوا بعد نكسـة حزيـران ليؤسسـوا مشروعـا تنويريـا نقديا للقطيعـة المعرفية مع الـتراث الديني، خاصة في جانبه السـلطوي والثقافي، وهذه الإطر هي تنـوع للعقلانيَّة، العربيـة المتنورة، وبدون أن تكـون العقلانيَّـة طريقًا لذلـك، لايمكن للأمة العربيـة أن تنهـض مـن هزائمهـا المتكررة. سـنجد أنَّ هـذه الحقول سيشـتغل كل واحد منها بمعـزل عن الآخر، وبمّـا أنَّ كلَّ حقلٍ له هُويته، قواعده، قوانينه، أسسـه، وتشـعباته، سـيكون من المفيـد أن نركنهـا إلى مبدأ عقلي تجريبـي، قادرعـلى تجديـد نفسـه وإعـادة صياغـة الحقـول بمـا يتمـاشى والتطـورات الأجتماعيَّـة والثقافيَّـة. إذ لا يمكـن تصـور حقل الثقافة أو المعرفة أوالسـلطة ، إلّا مقترنا بمنهجيـة اجتماعيَّة قادرة على تبادل الخبرات فيما بينها، وقائمة على العلم والتجربة والفهم الذاتـيّ، أيَّ ثمَّـة بنية منظمـة تجعل الحقول الثلاثـة في تصاهر جدليّ تخضـع للـ «القواعد والقوانين والمعايـير». التي تفرضها العقلانيَّة كإطار يوّحد مجال العمل بين الحقول الثلاثة. أن ما طرحه أدونيس بشـأن الثابت في العقلية العربية والمتحول، يكمله ما طرحه العروي في نقـد الايديولوجيا العربية، ومـا طرحه محمد آركـون في نقد الفلسـفة العربيـة، وما طرحه محمـد عابـد الجابـي في نقد العقـل العربي، وتمتد قائمـة المثقفين العقلانيـين التنويريين لتشمل طه عبد الرحمن في مشروعة الوسطي، ونـصر حامـد أبوزيد في تأويل النـص الديني، وصادق جلال العظم في قضايا التحريم، والطيب التزيني في قيم وأفكار العصر الوسيط.

يعرف بوردو الحقول بأنها «فضاءات مشكّلة من المواقع(أو المراكز)التـي تتوقف خاصيتها على المـكان الذي تشـغله في هـذه الفضاءات، والتي يمكن تحليلها في اسـتقلال عن مميزات شـاغليها(التي تحددها جزئياً)، هناك قوانين عامـة للحقـول». وهناك قوانـين خاصّة بكل حقل تحدد مجاله وتضبط اشتغالاته. وللوهلة الأولى تبـدو أنَّها حقول مسـتقرة على مفاهيم وأجـراءات يمكـن توصيفها بدقـة، خاصة في المجتمعات الغربية، وهذا ما يجعلها تؤسـس قاعـدة بيانـات يمكـن العـودة إليهـا. إلا أنَّ النَّقـد لا يقف عند هـذه الحقـول الثلاثة كما لو كانـت متجردة من العوامل التي أسسـتها والتـي لحقتهـا. وأول توصيـف يمكنـه أن يدلنّـا على أهمية العلاقة بـين الثقافة والمعرفة والسـلطة، هو أنَّها تنتج معرفة متشـابكة في

داخـل هذه الحقول، فلا سـلطة بدون معرفة وثقافـة متعينيتـن، ولا معرفـة دون سـلطة تضبط مسـارها وتحـدد توجهاتها، ولا ثقافة دون مؤسسـات علميـة تؤكـد حضورهـا في بنيـة المجتمع، كما يؤكد ليفي شـتراوس تبعا للظروف الموضوعيَّة التي تمّر بها البلدان ومن بينها المكونات الجغرافية والثقافيَّة والسياسية والقومية.

وليس "الثابت" إلا مصطلحاً, شـأن "المتحول". وقد عنيت بـ"الثابت" مايبني أحقيته على ماض يفسره تفسيراً خاصاً, معيناً, ويعزل أو "ينفي" كل من لايقول قوله. وعنيت بـ "المتحول" ما يرفض"أحقيه" هذا "الثابت", اسـتناداً إلى تفسير خاص, معين, لذلك المـاضي عينـه, عاملاً, بواقعية كونه خارج السـلطة, على تحويـل المجتمع في اتجاه ما يهدف إليه.

(الثابت والمتحول ج١ ص٣٠- ٣١)

هـذا الموروث الثقافي هـو أصل ثقافتنا. حين إخذنا نواجهه, منـذ احتكاكنا بالحضارة الغربيـة الحديثة, اكتفينا إجمالاً بتمجيـد أو تمييز المظاهر التي تلائـم إيديولوجياتنا الراهنة, أو التي لاتتناقض معها. فأخذ كل جيل عربي أو كل مفكر يخيط موروثه رداءً مطابقـاً لاتجاهه الإيديولوجي: فهـو تارة واحة العقل الحر, وتارة السـجن والمعتقل, وهـو طوراً مهد الديمقراطية وطوراً آخر, مهد العبودية. وهو, حيناً يتضمن كل شيء, وحيناً فقير يحتاج إلى كل شيء.

(الثابت والمتحول ج١ص٣٣)